أتسلق هذا الحدور فألوذ بأجمة من هذه الغابة! ولكن! وي! أي وحش ضار يغتذي بلحمي ثمة؟».

بيد أنه توقل[1] في الجبل حتى أوشك أن يضرب في الغابة؛ ثم كان بين زيتونتين إحداهما مثمرة، والأخرى عقيم، كل منهما لفاء شجراء حتى لا تنفذ الريح بينهما، ولا تنسرق أشعة الشمس خلالهما، ولا الماء بواصل إلى من استذرى بهما.

هنا... وجد أوديسيوس مأمنه... فراح يمهد الأرض، ويلملم ما استطاع من قش ويحتطب، حتى صنع لنفسه منامة تكفي اثنين غيره، من الضاربين المشردين في الأرض، ودعم حفافيها بفروع الشجر... ثم أسلم عينيه لنوم هادئ عميق، سكبته مينرفا في كلتا مقلتيه.

فلله ما كان أروعه غارا في هذا السفط من القش، كشعلة من زيتونة لا شرقية ولا غربية، يعتز بها ريفي شاب في قرار مكين[2].

* * *

نام أوديسيوس منهوك القوى.

وذهبت مينرفا تدبر له أمرًا في شيريا، بلد السلالة ذوي المجد من أبناء فياشيا ـ ملوك البحر الذين فروا من وجه جيرانهم الجبابرة السيكلوبس ـ في العصر الخالي، ونزلوا بهذا البلد، فشادوا حصونه، وأقاموا أسواره، وتوزعوا أرضه المخصبة، وأسكنوا الدور والقصور، وأنشأوا المعابد للآلهة عرفانا وشكرانًا.

وقضى ملكهم وزعيمهم نوزيتوس... ثم استوى على العرش من بعده ألكينوس، حبيب الآلهة، وصفي السماء.

* * *

كانت الأميرة الحسناء، نوزيكا، ابنة ألكينوس الملك؛ تغط كالملاك في

---

(1) صعد.

(2) كانت النار في الزمن القديم أغلى ما يعتز به الناس.

Twitter: @ketab_n

نوم عميق بين وصيفتين رائعتين من وصيفاتها، فوق سرير وثير في مخدعها الملكي الفاخر.

وكان رتاج الباب محكما كأنه رتاج باب الجنة، ولكن ذلك لم يقف بسبيل ربة الحكمة مينرفا، التي خطرت إلى الداخل كنسمة نادية من نسمات الصباح، ووقفت لدى رأس ابنة الملك تزخرف لها هذا الحلم الفضي الجميل، وإنما تبدو لها في المنام في صورة صديقتها وأعز أترابها ابنة ديماس الكريم:

«نوزيكا! يا ويح لك أيتها النؤوم المكسال! أهكذا تهملين ملابسك وأنت موشكة أن تزفي إلى عروسك، وعليها يتوقف مظهرك ومنظرك ورواؤك» ورواء حاشيتك ووصيفاتك؛ كما يتوقف عليها زهو أبويك بين الناس مع الفلق[1] فاذهبي بمطارفك[2] إلى المغتسل عند ضفة النهر فاغسليها وأعديها ليوم زفافك، يوم تودعين مرح هذا الشباب الخالي... هلمي! إني سأعاونك، أنت يا ساحرة ألباب شباب الفياشيين! سلي أباك أن يرسل لك عربة وبغالًا تحمل ثيابك ومطارفك إلى عدوة النهر حيث لا شاهد ولا رقيب».

وانفتلت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين، ورقت أسباب السماء حتى كانت فوق ذروة أولمب... حيث السكون والهدوء والصمت، وحيث مستقر الآلهة، وحيث لا تعصف ريح ولا يتلبد سحاب ولا تدمع عين مطر... وحيث السماء لا زوردية صافية إلى الأبد.

* * *

وخطرت أوروراً فوق عرش المشرق، وأرسلت من لدنها أمينًا من رسل النور يداعب جفني نوزيكا، فهبت وحلمها الجميل لما يفتأ يساور رأسها الصغير، وهرعت من فورها تبحث عن أبويها تقص عليهما أنباء ما رأت، وقد ألفت أمها لدى المدفأة مكبة على غزل من صوف أرجواني موشي بصبغ بحري، ومن حولها وصيفات يساعدنها... ثم لقيت أباها يكاد يذهب ليترأس مجلس شيوخ المملكة، فاستوقفته وكلمته في العربة، واحتجت بملابس

---

(1) الفلق أول ضياء الصبح.

(2) جمع مطرف بضم الميم وفتح الراء الرداء.

Twitter: @ketab_n

إخوتها الخمسة الذين يستحيون أن يراقصوا العذارى في الحفلات بملابس لا تليق بأبناء الملوك... وعقد الخجل لسانها فلم تذكر مطارف زواجها وشفوف[1] زفافها... ولم يبخل أبوها بما طلبت، بل أمر لها بعربة كبيرة عتيدة ودواب، وزودتها أمها بأشربات وآكال وطيوب ومروخ[2].

واستوت مع وصيفتها في العربة وساطت البغال فانطلقت تطوي الرحب إلى النهر، حيث وقفت عند منعرج يترقرق فيه بلور الماء، متدفقًا من نبع قريب، وسرحت الدواب لترعى العشب الحلو النامي على جفافي الماء، ثم أخذن في غسل المطارف ونشرها فوق حصباء الشاطئ الذي طمه المد ونضحه الجزر، واغتسلن بعد ذلك وتضمخن، وجلسن على شفا النهر يتبلغن بلقمات، ثم نهض فتلاعبن بالأكر، وتغنت ابنة الملك أعذب الأغاني، وتثنت كما تتثنى ديانا في شعاف الجبال، وفي يدها القوس والترس، تصيد الخنازير في أريمانت ـ ومن حولها ربرب من عذارى الآلهة، وابنة لا تونا[3] تتيه عليهن وتدل، كذا كانت تميس ابنة الملك فيكسف لألاؤها جمال الأخريات.

وهنا... شاءت مينرفا أن يهب أوديسيوس من نومه، ليشهد الغادة الهيفاء التي كتب في الأزل أن تقوده إلى المدينة، ففيما كانت نوزيكا تضرب الكرة لتلقفها إحدى وصيفاتها، إذا هي تعلو وتعلو، ثم تدوم كما يدوم الطائر في العباب المصطخب...

وصرخ العذارى صرخة مدوية، فانتفض أوديسيوس وهب مذعورًا مشدوهًا ليرى هذا المنظر العجب!

ويحي! أي بني الموتى قطان هنا؟ ليت شعري أشوس عرابيد أم كرام أجاويد! أوه! إنهن عرائس ماء تفزعن فرجعت الغيران أصداء صراخهن، وتراقص الحباب فوق لعباب من جرسهن، وتثني الكلأ نشوة في الوادي! لأدلف نحوهن فأرى إليهن...».

---

(1) جمع شف بفتح الشين الثوب الرقيق جدًا.

(2) ما يمسح به الجسم من دهن أو طيب أو غيرهما.

(3) هي ديانا.

Twitter: @ketab_n

وخطر من دغيلته[1] خطران الأسد هاجته العاصفة، فاتقدت في عينيه جمرتان من غضب، أو ظمي فاشتدت غلته إلى الدماء... ونشط نحو العذارى، فما إن رأينه حتى تفزعن وولين مذعورات في الشاطئ ذي النؤى.. إلا نوزيكا! فقد نفخت فيها مينرفا من روحها، ونزعت من فرائصها رجفة الخوف، فوقفت شماء الأنف تنتظر القادم.

وارتبك أوديسيوس ولم يدر ماذا يصنع؟ أيجثو تحت قدميها يتوسل ويتفرع، أم يقف عن كثب يستعطف ويسأل الفتاة دثارًا، ويرجوها أن تهديه إلى المدينة! وآثر الثانية فتلطف، ثم قال:

«عمرك الله أيتها الملكة! أربة من الخالدات، أم حسناء من بني البشر؟ أضرع إليك أن تجيبي! فإنك إن كنت ربة، فما إخالك إلا ديانا، ابنة سيد الأولمب! ولم لا؟ ولك قسامتها ووسامتها[2] وقدها الممشوق، وحسنها السوي وجمالها الروي! أما إن كنت إنسية فما أسعد آلك بكن ولشد مايزهون بجمالك! كلما خطرت في ملعب، أو بدحت[3] في مرتع... ثم ما أسعد الزوج الذي سيحظى بكل ذلك الجمال، لا يضارعه في العالم جمال! ألاما أروع ما تبدين كالنخلة اليانعة في ديلوس عند مذبح أبوللو، أيتها الأميرة! ألاكم أتمنى أن ألثم قدميك، لولا ما ينتابني من روع، ويؤودني من فزع ـ أنا ـ ذلك المعنى المحزون المشجون ـ أنا ـ ذلك العيي الموهون الذي أفلت من يد المنون أمس، بعد إذ كشر له عن نابه في ذلك البحر اللجي، بعد سفرة عشرين يومًا من أوجيجيا، وسط أنواء وأهوال، وموج كالجبال، حتى شاءت العناية أن تطرحني بشطئانكم الحبيبة! ولست أدري ما خبأت إلى المقادير بعد! ولكن، هل ترثي مليكتي من أجلي، وهي أول من لقيت في هذه الأرض بعد طول عنائي، فترشدني إلى مدينتها، وتسبغ عليّ ـ أسبغت عليها الآلهة كل ما تتمنى من هناء وبلهنة[4] وقران قوي العرى لا تتطاول إليه أعين الأعداء ـ دثارًا يستر سوءتي؟».

---

(1) الدغيلة والدغل الشجر المتلف.

(2) القسامة والوسامة الحسن.

(3) مشية الحسناء.

(4) سعة العيش.

Twitter: @ketab_n

وأجابته نوزيكا: «حبًا أيها الغريب النازح وكرامة! إن سيماك تدل على نبل، وسمتك ينبئ عن رفعة! اصطبر على ما ابتلاك به كبير الآلهة الذي بيده العزة، يشقي من يشاء، ويهب لمن يشاء، وإني سأدلك إلى المدينة، مدينة الفياشيين ملوك البحر، التي أنا ابنة ملكها العظيم ألكينوس، رب نعمائها ومصدر رخائها» وأومأت إلى وصيفاتها تقول: «مكانكن يا عذارى! فيم فراركن هكذا من إنسي كريم؟ لقد أبت الآلهة أن تطأ قدم عدو أرض أحبائها، بلادنا المقدسة، التي انعزلت في لجج هذا الخضم عن كل العالم، إنه غريب يا عذارى، جواب آفاق، قذفه البحر إلى شاطئنا، فمرحبًا به ضيفًا من لدن زيوس، وأهلا بوفادته وسهلًا... هلم إذن ياصويحبات فقدمن له طعامًا وشرابًا، ثم هيئن له حمامًا في منعرج ظليل عند حفافي النهر».

وأهرع البنات فقدن أوديسيوس إلى منعرج ذي ظلال وأفياء، وأعددن له ثوبًا وكساء، وهيأن طيوبًا يتضمخ بها إذا فرغ من حمامه، وسألهن أن يذهبن بعيدًا حتى لا يتعرى أمامهن، إذ «... لشد ما يخجلني أن أبدو عاريًا أمام الخرد[1] الخفرات!»... وتهادين إلى مولاتهن يحدثنها بما قال: بينما هو قد انقذف في الماء يشغل كاهله وحقويه مما جمد عليهما من ملح اللجة، وصعد فتضمخ بالطيب الثمين ثم أسبغ على بدنه العتيد ذلك الكساء التي منحته إياه نوزيكا، ومن أعجب العجب أن مينرفا نفسها كانت تعاونه في تجميل خلقه، وتزيل من شعره الكث الأشعث تلبداته التي كانت تبدو كأنها أزهار الخزامي.. ثم هي بعد كل ذلك تضفي عليه أمواها من البهاء تظلل بها صداره، كأنما هي فلكان الصناع يعمل حلية من فضة وذهب، وجلس على الشاطئ في رونق وروعة، حتى إذا لمحته الأميرة العذراء أذهلها جماله، وقالت لوصيفاتها. «تالله يا صويحبات لقد شككت في حال هذا الرجل أول الأمر، ولقد حسبته آفاقيا من رعاع الناس، ولولا أنني أثق أن الآلهة لا تسوق إلى بلادها الحبيبة هذا الصنف من البشر... أما هو الآن، فلشد ما يشبه أرباب السماء! أواه!

(1) جمع خريدة: الحسناء.

Twitter: @ketab_n

لوددت أن يكون لي زوج في بهائه وحسن سمته، على أن تبقى آخر الدهر هنا.. هلم يا وصيفات... قدمن له طعامًا وخمرًا».

ومددن أمامه سماطًا كبيرًا، وزودنه بأحسن الأشربات والآكال؛ وأخذ أوديسيوس في إكلته حييًا متأدبًا، يرد عنه تلك المسبغة الطويلة التي أنهكت قوته.

ووضعت أحمال المطارف والثياب فوق العربة، وشدت البغال، واستوت الأميرة في مكانها، ثم هتفت بأوديسيوس فقالت له «هلم أيها النازح الغريب! إلى المدينة إذن! إني سأرشدك إلى قصر أبي، حيث تلقاه في جمع من أشراف الفياشيين وسننطلق وسط هذه الحقول، وإن لي معك من أجل هذا لكلمة.. لقد بنيت مدينتنا فوق صخرة راسية، وأحاط بها سور عظيم، ثم وصل بينها وبين فرضتها جسر ضيق تقر على جانبه سفائننا، رابضة متراصة، ثم ينهض عندها معبد نبتيون العظيم، وبجواره سوق المدينة المبني من الحجر الصلد، حيث تباع حبال السفن وشراعها، وحيث تصنع مجاديفها أو أكثر عتادها ـ لأن الفياشيين لا يعنون بشيء عنايتهم بهذه المنشئات في البحر كالأعلام ـ والذي أخشاه أن يرانا الناس ثمة فيستهزئوا بنا، وقد يسلقونني بألسنة حداد، قائلين في سفاهة وتندر: ترى؟ من يكون هذا الغريب النجيب الهرقلي الذي يقص أثر الأميرة ابنة الملك؟ أي صدفة جمعت شملهما يا ترى؟ سرعان ما نراها تزف إليه عروسًا كاعبًا... قد يكون ضيفًا غير محمود من أرض نائية؛ أو ربما صادت بصلاتها وتسبيحها واحدًا من الآلهة أبق من السماء ليقر معها إلى الأبد... الحمد لله الذي من عليها بزوج سعيد من بلاد غريبة يشبع أمانيها الجامحة بعد أن رفضت الأيدي الكثيرة التي تقدمت إليها من أبناء الفياشيين»... هكذا سيقول الناس إن رأونا أيها الرجل، ولهم الحق، فأنا نفسي لا أعفي من اللائمة فتاة عذراء تستبيح أن تمشي مكشوفة مع رجل غريب قبيل عرسها... ولكن أصغ إلي: إنك واصل حتما إلى أبي إذا اتبعت نصيحتي... بعد قليل سيصل ركبنا إلى حرج أشجار الحور المقدس النامي في تخوم الطريق باسم ربة العدالة والحكمة مينرفا.. وإن عنده لنبعًا يترقرق وسط كلأ وأعشاب... وإن عنده لحديقة أبي، الجنة الضحوك الغناء! قف ثمة حتى إذا دخلنا نحن المدينة

Twitter: @ketab_n

وحصلنا في بيت أبي، فتقدم أنت وادخل المدينة وأسأل أيا من الناس، ولو طفلًا يافعًا، عن قصر ألكينوس الملك، أبي الحبيب، فإنه معروف مشهور لا يضارعه منزل آخر في سعته وأبهته. فإذا دخلته فلا تتوان لحظة، بل سر قدمًا حتى تلقى أمي جالسة لدى الموقد المتأجج بجانب عمود مرمري، مكبة على غزلها الصوفي الموشى بأصباغ البحر، ومن حولها وصيفاتها يعاونها في إنجازه ـ وقريبًا منها ترى أبي مستويًا على عرشه يطعم ويشرب كأحد آلهة الأولمب... لا تكلمه.. بل جاوزه إلى أمي الرؤوم، ثم سل حاجتك تقضيها لك، وتعدك إلى وطنك مهما كان سحيقًا نائيًا... أثر في صميمها عامل الخير والمحبة، تردك إلى آلك وذويك وبلادك... وسلام عليك».

ثم إنها ألهبت ظهور البغال، فانطلقت تعدو مولية عن النهر الذي صار يبتعد قليلا قليلا... وكانت نوزيكا آخذة بزمامها لتكبح من جماحها، حتى لا تفوت أوديسيوس من ورائها.

وكانت الشمس تصبغ بالورس[1] جبين المغرب حينما وصل الركب إلى حرج مينرفا المقدس، الذي نهض حوره الباسق في السماء نضرًا ملتفًا، كأنما يناجي ابنة جوف، المدرعة بإيجيس[2].

وهنا... وقف أوديسيوس يصلي لمينرفا:

«يا ابنة جوف القوي المتعالي اسمعي لي! أصيخي الآن يا ربة! لقد تصاممت عني إذ كانت اللجج تلقفني فراعيني الآن! اجعلي لي مرفقًا من أمري، وهبي لي محبة ورحمة في قلوب أبناء الفياشيين أنسى بها آلامي... آمين آمين!».

ولبت ربة الحكمة واستجابت لدعائه، بيد أنها، احترامًا لعمها (نبتيون) الذي لا يفتأ يقتفي أثر أوديسيوس عدوه الأكبر، لم تشأ أن تبدو له.

وفرغ أوديسيوس من صلاته، ووصلت عربة الأميرة إلى القصر فلقيها إخوتها الأمراء الخمسة النجب، فحلوا الدواب وحملوا المطارف

---

(1) الورس صبغ بين الأحمر والأصفر.

(2) كانت مينرفا تلبس درعا تسمى إيجيس.

Twitter: @ketab_n